الإسكندرية في حكايات ألف ليلة وليلة

وتجسيد دورها الحضاري في مواجهة الفرنجة

أ.د. أحمـد درويـش

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المقارن

كلية دار العلوم، جامعة القاهرة

مصر

الاستلام	2018/10/5	المراجعة	2018/11/17	النشر	2018/12/31

الملخص:

شكلت الإسكندرية جزءًا هامًا من الصورة التي رسمتها حكايات ألف ليلة وليلة للمواجهة الحضارية بين الشرق والغرب، وقد تكلفت المرحلة الثالثة من مراحل الحكايات وهي مرحلة "الليالي المصرية" التي تأتي بعد مرحلة "الليالي الهندية" و"الليالي البغدادية" تكلفت برسم صورة حية نابضة للإسكندرية ومجتمعها المختلط الذي تضمن الحوار فيه صور مختلفة لثقافات العصور الوسطى.

وسنحاول في مقالين متتالين تجسيد هذه الصورة من ناحية الحوار العاطفي وما يرتبط من صراعات ساخنة، ثم الصراع الصناعي والتجاري وصوره الهادئة في المقال التالي.

الكلمات المفتاحية:

ألف ليلة وليلة، الإسكندرية، الليالي المصرية، الشرق والغرب، العصور الوسطى.

Alexandria in Tales of Thousand and One Nights
And the embodiment of its civilizational role in the face of the Franks

Prof. Ahmed Darwish

Professor of Rhetoric and Literary Criticism

Faculty of Dar Al-Oloum

Cairo University

Egypt

Received	5/10/2018	Revised	17/11/2018	Published	31/12/2018

Abstract:

Alexandria has formed an important part of the picture drawn by the Thousand and One Nights of the Civilizational confrontation between East and West. The third phase of the tales, the stage of "Egyptian Nights" that comes after the stage of "Indian Nights" and "The Baghdadi Nights" cost a vivid picture of Alexandria And its mixed society, in which dialogue included various images of medieval cultu res.

In two successive articles we will try to reflect this picture in terms of emotional dialogue and associated hot conflicts, then industrial and commercial conflict and its quiet image in the following article.

Keywords:

Thousand and One Nights, Alexandria, Egyptian Nights, East and West, Middle Ages.

شكلت الإسكندرية جزءًا هامًا من الصورة التي رسمتها حكايات ألف ليلة وليلة للمواجهة الحضارية بين الشرق والغرب، وقد تكلفت المرحلة الثالثة من مراحل الحكايات وهي مرحلة "الليالي المصرية" التي تأتي بعد مرحلة "الليالي الهندية" و"الليالي البغدادية" تكلفت برسم صورة حية نابضة للإسكندرية ومجتمعها المختلط الذي تضمن الحوار فيه صور مختلفة لثقافات العصور الوسطى.

وسنحاول في مقالين متتالين تجسيد هذه الصورة من ناحية الحوار العاطفي وما يرتبط من صراعات ساخنة، ثم الصراع الصناعي والتجاري وصوره الهادئة في المقال التالي.

لدينا ثروة من كتابات الأدب الشعبي التي ترصد صورة الفرنجة لدى عامة الناس، وترسم قصصًا لطرائق التعامل معهم في أزمنة الحرب والسلام والكراهية والحب، والتعامل معهم داخل الديار أو فيما وراء البحار، على مستوى القادة المشهورين والفرسان المعروفين أو عامة الناس المغمورين، وتهتم بعالم النساء عندهم اهتمامًا بعالم الرجال، وتخترق حواجز هذه العوالم المجهولة متقلبة بين مشاعر الانبهار ومشاعر الإنكار، وناسجة من خيالها تفسيرًا مجسدًا لما وراء أحداث الانتصال أو الانكسار، ومخططة لمعارك وقعت أو كان ينبغي أن تقع، ومكملة لخطط يتدخل فيها الخيال الشعبي، ليكمل القصور الذي وقع فيه قادة العرب والمسلمين، وهم يواجهون الفرنجة ولتغمز هؤلاء القادة في سلوكياتهم ونقائصهم وأخلاقياتهم وملذاتهم التي وقعوا فرائس لها، فأضاعوا كثيرًا من فرص النصر، وهم يواجهون الفرنجة، ولكنها في الوقت ذاته ترسم صور التمجيد لأبطال العرب والمسلمين الذين أحسنوا البلاء في مواجهة الفرنجة.

وإذا كان جانب من صورة الفرنجة يمكن أن يرسم من خلال أدب السيرة الشعبية الملحمية مثل: سيرة الظاهر بيبرس، وسيرة الأميرة ذات الهمة، فإن القصص الشعبية المتنوعة في عمل أدبي كبير مثل "ألف ليلة وليلة" يمكن أن تساعد على رسم جوانب من هذه الصورة أكثر تنوعًا وأكثر امتدادًا في الزمان والمكان، دون أن تنقص بأي حال من الأحوال من عطاء الصورة التي ترسمها هذه الملامح الشعبية المطولة في هذا الصدد، والتي قد نعود إلى رصد معطياتها في بحث تال.

لكننا نود هنا أن نرصد بعض ملامح صورة الفرنجة في حكايات "ألف ليلة وليلة" مستفيدين من رحابة المساحة الزمانية والمكانية لنصوصها، وهي رحابة ربما لم تتح بنفس القدر لأي نص آخر في الأدب العربي. ذلك أن طابع "المؤلف المجهول" لحكايات ألف ليلة وليلة قد ترتب عليه طابع النص المفتوح الذي ظل متداولا بين أيدي القصاصين و الوراقين يضيف إليه كل جيل ما لديه، حتي تم إغلاق النص المكتوب في الربع الأول من القرن السادس عشر بعد دخول الأتراك العثمانيين إلي مصر، ومعني ذلك أن صورة مثل صورة الفرنجة التي ترد في حكاياها المتناثرة عبر "ألف ليلة وليلة" ظلت مفتوحة نحو أربعة قرون أو تزيد، حتى استقرت في النص الذي بين أيدينا، والحكايات التي تتعرض لصورة الفرنجة في "ألف ليلة وليلة" متعددة، بعضها يتعرض للفرنجة، تعرضا جزئيا، على حين يدور صلب الحكايات خارج نطاق دائرة الفرنجة، وبعضها الآخر، يتخذالعلاقات بين المسلمين والفرنجة محوره الرئيسي، وتسيطر على تفاصيله الفرعية.

ويلاحظ - بصفة عامة – أن الحكايات المتصلة بالفرنجة ينتمي معظمها إلي طائفة "الليالي المصرية" في ألف ليلة وليلة، وينطبق كثير من حكاياتها من المدن الساحلية مثل الإسكندرية؛ لكي يصب في مدن ساحلية مقابل مثل جنوه والبندقية أو في واحدة من جزر البحر المتوسط أو مدنه التي توصف دون أن تسمي.

ومن الحكايات التي تتعرض جزئيا لصورة الفرنجة، "حكاية علاء الدين أبي الشامات". وهو ابن شمس الدين شاه بندر تجار مصر في زمانه، وقد اتسعت تجارته، واتصل بخليفة بغداد، وكان له ابن شهير من رجال الخليفة يسمي

أحمد الدنف، وكان لعلاء الدين محل تجارة في الإسكندرية، وكان قد عرض فيه يوما حرزة كبيرة بها خمسة وجوه، وعليها كتابات وطلاسم، فرآها قنصل من الفرنجة، كان يمر في الطريق، فعرض على علاء الدين أبي الشامات أن يبيعها له بثمانين ألف دينار، فوافق ودعاه إلي أن يحضر معه إلي مركبه الرأسية في الميناء؛ ليعطيه هذا المبلغ الكبير الذي لا يستطيع أن يسير به في شوارع الإسكندرية، وعندما نزل معه مركبه وأعطاه ثمن الحرزة، دعا إلي شراب، ووضع له فيه البنج، وأمر بحل القلاع وأبحرت السفينة ناحية مدينة جنوه، ووسيلة التخدير عن طريق البنج واحدة من الوسائل الشعبية التي سوف نلتقي بها كثيرا في الصراع بين المسلمين والفرنجة، ونجد في مقابلها وسائل لإفاقة "ضد البنج" تشمم للضحية عندما يراد إيقاظه، وفي هذا المشهد من حكايات علاء الدين أبي الشامات، نلتقي بوسيلة أخرى أكثر عنفا في الصراع، وهي وسيلة القرصنة البحرية، وهي تنسب إلي الفرنجة الذين يستولون على مراكب المسلمين المسافرة في البحر، يقول الراوي "فبينما هم في الظلام، وإذا بمركب فيه أربعون من تجار المسلمين، فطلع القبطان بمركبه عليهم، ووضع الكلاليب في مراكبهم، ونزل هو ورجاله فنهبوها، وأخذها وسار بها إلي مدينة جنوه، فأقبل القبطان الذي معه علاء الدين إلي باب قصر قيطون، وإذا بصبية نازلة، وهي ضاربة لثاما، فقالت له: "هل جئت بالخرزة وصاحبها"؟ فقال لها: "جئت بهما"، أما مصير الذين يقعون في يد قراصنة الإفرنج من المسلمين، فهو مصير يتكرر وصفه في كثير من مشاهد الصراع مع الفرنجة في ألف ليلة، وهو أطاحة الرأس بالسيف لكل الأسرى واحدا بعد الآخر بأمر الملك وعلى مرأي منه، وأحيانا يفلت الأسير الأخير مصادفة حين تصل عجوز من الدير، وهو علي وشك تنفيذ الحكم به، فتذكر الملك بأنه قد وعدها بأن يعطيها أسرى المسلمين؛ لكي يعملوا خدما في الدير، فيوقف إجراءات القتل في الأسير الأخير، ويمنحها إياه، وغالبا ما يكون هذا الأسير هو بطل القصة الذي يريد الراوي أن يمنحه فرصة لمواصلة مغامراته، فقد حدث هذا المشهد هنا مع علاء الدين أبي الشامات، وحدث مشهد مماثل في حكاية "علي نور الدين ومريم الزنارية، وفي كلتا القصتين كانت هناك فتاة من بنات الإفرنج، وهي غالبا بنت الملك تنتظر البطل المسلم الذي وقعت في هواه، وقد تكون هي التي دبرت حيلة نجاته، ونكتشف خلال الحوار أنها كانت قد أسلمت وأخفت إسلامها، كما تقول الأميرة مريم هنا لعلاء الدين أبي الشامات: "حاشا لله أن أكون كافرة، بل أنا مسلمة ولي ثمانية عشر عاما وأنا متمسكة بدين الإسلام ... وحين بلغت من العمر أربعة عشر عاما، قرأت الإنجيل وغيره من الكتب فرأيت اسم محمد في الأربعة كتب، التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فآمنت بمحمد، وأسلمت وتحققت بعقلي أنه لا يعبد بحق إلا الله تعالي، وأن رب الأنام لا يرضي إلا بدين الإسلام".

هذا نمط من أنماط ورود صورة الفرنجة وروداً عرضيا في إحدي حكايات ألف ليلة ولية، وهو نمط ترد فيه نواة الخصائص التي ترد في مواضع أخري مشكلة صورة الفرنجة العامة في خيال الراوي المسلم، وقد رصدنا منها هنا مشهد القرصنة البحرية، وعشق المرأة الإفرنجية للبطل المسلم، ونستطيع أن نرصد هنا ملمحا آخر سوف تؤكد عليه الحكايات التالية وهو أن هذه المرأه العاشقة غالبا ما تتمتع إلى جانب الجمال الخارق بالشجاعة الخارقة، التي تجعل منها فارسا ملثما، يجيد كل فنون القتال، ويطيح برؤوس عشرات الأبطال من فرسان الفرنجة الآخرين، الذين يحاولون التعرض للبطل المسلم، ومن اللافت للنظر أن نجد شجاعة البطل المسلم - في بعض الأحيان - أقل بكثير من مستوى شجاعة صاحبته الإفرنجية، بل إنه لا يخجل من التصريح بهذا، فها هي الأميرة مريم عندما هربت مع علاء الدين طاردتهم فرقة من فرسان الفرنجة، فلما رأت الغبار قد سد الأقطار، وبعد أن علا وطار انكشف، فظهر من تحته أ×وها والعسكر وهم ينادون: إلي أن تقصدون؟ فقالت لعلاء الدين: كيف ثباتك في الحروب والنزال؟ فقال لها: مثل الوتد في النخال، فإني ما أعرف الحرب والكفاح ولا السيوف والرماح.

وذلك ملمح ذو دلالة من جانبين: تعود الإفرنجية علي الحروب في معظم الأحايين وعدم تعود الفتيان المسلمين عليها في كثير منها كما نري في حكايات تالية.

وسوف نختار حكايتين تنطلق من مدينة الأسكندرية ونعودان إليهما، وتمثلان أنواع التشابك العاطفي والتفوق الحضاري والصناعي الذي كان يتخد مدينة الاسكندرية في بقاء المصريين والفرنجة.

أولاً: صورة الفرنجة في حكايات المواجهة الفردية ذات الطابع العاطفي

إذا كانت المرأة قد احتلت مكانا بارزا، في رسم صورة الفرنجة، على لسان الراوي في حكايات ألف ليلة ولية، فإن من الطبيعي أن تحتل مكانة الصدارة في حكايات حب بين فتي مسلم وفتاة إفرنجية، تهيئ لهما ظروف العلاقات المتشابكة بين المسلين والفرنجة فرص اللقاء، في الوقت الذي تجعل فيه مثل هذا اللقاء محوطا بالمراقبة والتخوف والتهديد بالفراغ، وتفرض عليه ظروف الصراع العامة التي تحكم المواجهة بين المسلمين والفرنجة. وكانت المدن الساحلية هي المكان المفضل لإدارة هذه المواجهات، حيث يوجد البحر المالح الفاصل بين الطرفين، مما يسهل للراوي، فرصة إدارة كثير من فصول الصراع حوله سواء في مجال القرصنة، وهي صورة شائعة في المواجهة بين الطرفين، أو في مجال الكر والفر لأحد العاشقين، وملاحقة الآخر له، في جولات تبدو في بعض الأحيان مكوكية، يحاول من خلالها الراوي إشباع الظمأ الذي يتولد لدى السامع طلبا لمزيد من المغامرة.

وتبدو حكاية "علي نور الدين مع مريم الزنارية" وهي الحكاية الخامسة عشرة بعد الثمانمائة من حكاية ألف لية وليلة، تبدو حكاية نموذجية في رسم صورة المرأة الإفرنجية في لحظات المواجهة الفردية ذات الطابع العاطفي. وفي رسم صورة الإسكندرية كملتقى حضاري بين الشرق و الغرب.

وتبدأ الحكاية بالإشارة إلي أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين، وكان من أكابر التجار، مولعا بالسفر إلي جميع الأقطار، ويحب السير في البراري والقفار، والسهول والأوعار، وجزائر البحار في طلب الدرهم والدينار، لكن الراوي لن يقف بنا كثيرا أمام هذا التاجر، وإنما يركز على ابنه علي نور الدين، الذي سيفتعل خلافا مع أبيه في صباه المبكر، لكي يجعله يرحل من القاهرة إلي الإسكندرية، مزودا بنفقة قليلة دبرتها أمه له لا تزيد على ألف دينار، ولكي يلتقي مصادفة هناك، بأحد معارف أبيه من العطارين المشهورين فيقدم له المسكن والرعاية الأولى، حتى يختط طريقة في المدينة التي يلتقي فيها كثير من العرب والفرنجة.

وتسوقه المصادفة في أيامه الأولى لأن يكون قريبا في جلسة مزاد، تباع فيها جارية إفرنجية - وكان ذلك شائعا في مدن سواحل البحر المتوسط نتيجة للقرصنة والصراع المستمر بين الطرفين – ويرتفع المتزايدون بسعرها، لكن سيدها كان قد ترك لها حرية اختيار من يشتريها، وهي ترفض كل الذين تقدموا لها، إلى أن تقع عينها على "نور الدين" فيقع هواه في قلبها وتود أن يشتريها، وتطلب منه أن يزيد قليلا على الثمن الذي وصل إليه المتزايدون، ويتطلب منه ذلك أن يدفع كل وديعته المدخرة عند التاجر صديق أبيه وهي ألف دينار.

وتبدأ كواجهة الحياة المشتركة بين الشاب الذي لا مال معه، وبين الفتاة الإفرنجية الجميلة التي نعرف من خلال الحوار أنها ابنة أحد ملوك الفرنجة، وقد أسرتها مراكب المسلمين هي وصاحبتها، أثناء توجههن لزيارة دير مقدس في إحدى جزائر البحر، وتم حملهن إلي مدينة القيروان، حتى بيعهن، وكانت من نصيب رجل عجوز طيب، أحسن معاملتها، وعندما رغب في بيعها طلبت منه أن يكون لها حق الخيار فيمن يشتريها، وأتى بها إلى الإسكندرية، حيث تم بيعها إلى علي نور الدين.

لكن خطوات مواجهة الحياة وأعبائها، كشفت عن جانب من الصورة التي يود الراوي أن يرسمها للفتاة الإفرنجية، وهي صورة قائمة على توافر حسن التخطيط والتدبير، ومعرفة الوسائل العلمية لمواجهة الحياة، إلى جانب وسائل الراحة التي تنجح في تهيئتها للزوج، وتبدأ ترتيبها هذه المواجهة من الساعات الأولى، حيث تكتشف أن مال زوجها قد نفد كله في شرائها، ولم يبق معه شئ يواجهان به الحياة، فتطلب منه أن يقترض من صديق والده

التاجر، خمسين درهما، وأن يذهب إلى السوق ليشتري بعشرين درهما منها خيوطا من الحرير، والباقي طعاما بالبيت، وبدأت – بعد أن أعدت لزوجها طعامه وشرابه – تنسج من خيوط الحرير "زنارا" رفيع المستوى، وقد انتهت منه في ليلتها الأولى، وطلبت من زوجها أن يذهب إلى السوق الإفرنجية في الإسكندرية، وأن لا يبيع هذا الزنار بأقل من عشرين دينارا، وفوجئ الزوج بشدة الإقبال على المنسوجات الحريرية الرفيعة التي تعدها زوجته، وبمضاعفة دخلهما كل يوم عشرات المرات إضافة إلى ما يجده في البيت من متع الحياة الزوجية، وطيب المعاشرة وأيقن أن ما يدره عمل فتاته الإفرنجية على بيتهما من الربح، أكثر مما تدره التجارة التي عهدها غزيرة الربح في بيت أبيه، ولقد قال لها ذات يوم: "علميني حتى أعمل معك، فإني طول عمري ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة، ولا أكثر مكسبا منها، وإنها – والله - أحسن من التجارة ألف مرة".

ولنلاحظ أن الراوي يضع على لسان الفتى العربي الإعجاب بعالم المنسوجات الصناعية الدقيقة وهي سمة من سمات عالم الفرنجة ومهاراتهم، وأنه يضيف إلى ذلك نسبة المهارة في هذه الصناعة إلى الفتاة إفرنجية في مقابل الشائع لدى العرب من محبة التجارة، التي تعتمد على ضروب من الحظ وإحكام الحركة، وانتهاز الفرصة، ومساعدة الأقدار أكثر من اعتمادها على المهارات الدقيقة والإتقان المحكم لجزئية صغيرة، يتم انتقاؤها وسط تخطيط عام لجزئيات صغيرة متكاملة، كما هو الحال في عالم الصناعات، ويركز الراوي على أن الذي يقوم بهذه المهارة، هو فتاة جميلة، لا تحمل معها أينما رحلت إلا خبرتها التي لا يمكن أن تضيع منها، أو تغرق في البحر، وإلا أدواتها التي لا تزيد على إبرتين تضعهما في جراب وتخرجهما عندما تجد مادة خيوط الحرير، وما أكثر وجودها في مدينة كالإسكندرية، وهي من خلال هذه الخبرة الكاملة تستطيع أن تدير الحياة في بيت، وتضمن له مقومات العيش والسعادة. وينتقل بنا الراوي إلي مرحلة أخرى، عندما أرادت الفتاة الإفرنجية بعد سنة كاملة، تنسج في كل ليلة منها زنارا، مما اشتهرت بصناعته حتى عرفت بنسبتها إليه فأصبح يطلق عليها "مريم الزنارية" أرادت بعد مضي عام، أن تنسج لحبيبها شالا حريريا خاصا مميزا، لم يتح من قبل لأحد من أبناء الإسكندرية "وبعد مرور السنة قالت له الجارية: يا سيدي نور الدين، إذا بعت الزنار في غد فذ لي من حقه حريرا ملونا سنة ألوان، فإنه قد خطر ببالي أن أصنع لك منديلا، تجعله على كتفك، ما خرجت بمثله أولاد التجار، ولا أولاد الملوك، فعند ذلك خرج نور الدين إلى السوق وباع الزنار، واشترى الحرير الملون وجاء به إليها فقعدت مريم الزنارية تصنع في المنديل جمعة كاملة .. وناولته لنور الدين، فجعله عله كتفه، وصار يمشي به في السوق، فصار التجار وأكابر البلد يقفون عنده صفوف؛ ليتفرجوا على حينه وعلى ذلك المنديل، وحسن صنعته".

هل أراد الراوي أن يمهد للكارثة المقبلة من خلال تسهيل التعرف على الفتاة الإفرنجية، بين آلاف الشوارع والحواري والأزقة في مدينة مزدحمة بالعرب والفرنجة كالإسكندرية خاصة أننا نعلم أن الفتاة ابنة ملك الفرنج، وأن جواسيس أبيها تبحث عنها عيونهم، وتسعى وراءها أقدامهم في كل مكان، وأن الإشارة المميزة لها هي البراعة في نسج الحرير، وأنها لم تنسج هذه المرة قطعة قابلة للتداول والبيع أشبهتها نحو ثلاثمائة وستين قطعة زنار، نسجتها على مدار العام، وإنما تنسج هذه المرة قطعة فريدة، ليست قابلة للبيع ولا التكرار، وإنما هي منديل متفرد يعلم الناس أن من يلبسه هو زوج مريم الزنارية، ويسهل التعرف عليها من خلال شارته المتحركة في الشوارع.

لقد مهد الراوي الطريق بذلك لتحول مجرى الأحداث، من خلال ظهور جواسيس ملك الفرنجة في الإسكندرية، ومع أن هؤلاء الجواسيس يعتمدون عادة على حدة إبصار العينين المدربتين في التقاط الأصداف، وسعة حركة القدمين القويتين التي تساعد على سرعة السعي نحو الهدف المكتشف، أو سرعة الفرار به، فإن الراوي يجعل شيخ الجواسيس الذي جاء للبحث عن مريم والعودة بها "رجلا إفرنجيا أعورالعين اليمني، وأعرج الرجل اليسرى"، وقد علمت مريم بوجوده، وحذرت نور الدين من أن يقع في شباكه.

وتسير الخطوات التالية مؤكدة مخاوف الفتاة الإفرنجية ذات النظر البعيد، وغفلة العربي رغم تحذيره من الوقوع في شباك الأعور الأعرج الإفرنجي عندما قالت له مريم "إن هذا الرجل سيكون سبب فراقنا، وقد رأيته في تلك المدينة، وأظن أنه ما جاء إلا في طلبي. فقال لها نور الدين: يا سيدة الملاح، إن وقع بصري عليه قتلته ومثلت به، فقالت له مريم: "يا سيدي لا تقتله ولا تكلمه ولا تبايعه ولا تشاوره ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تتحدث معه بكلام قط، وادع الله أن يكفينا شره وكره". ومع أن هذا الحوار يحمل من التفضيل ما يظهر أن الفكرة شديدة الوضوح في ذهن الفتاة الفرنجية، وأن الفتى العربي لا يطلب منه أي شئ سوى السلبية المطلقة، وتلافي التعامل مع الجواسيس، فإنه لا يصمد في أول لقاء له معه، حيث يكتشف الأعور شال مريم الزنارية على كتف نور الدين فيحاول شراءه، ويرفض الآخر، ويزيد الإفرنجي في السعر وهو يرفض، حتى يصل السعر إلي ألف دينار، وهنا يزداد ضغط تجار السوق عليه ليقبل الصفقة ويأخذ هذا الربح الوفير من الإفرنجي الملعون عدو الدين.

وتنتصر جلبة السوق الجماعية، التي خضع لها نور الدين على الفكرة الفردية المدركة للمخاطر، التي نبهته إليها مريم، فيسلمه المنديل (رمز المحافظة على المحبوب).

ويفرح بالمال، وينتهز المندوب الإفرنجي الفرصة ليخطو إلى هدفه بسرعة، فيدعو التجار جميعا – وعلى رأسهم نور الدين - على سهرة عنده، ويعدهم بتقديم بنية خمر رومي من معتق الخمر، وخروف سمين، وفاكهة ونقل، وشموم.

ويحاول نور الدين الاعتذار، فيحلف عليه التجار بالطلاق، ويذهب بقدميه إلى بيت من يعرف أنه جاء ليخطف زوجته، وهو يقبل دعوته على عشاء وكأس خمر، ويوصي الأعور غلمانه بأن يزيدوا في شراب نور الدين؛ حتى سكر وغاب عن وجوده، فلما رآه الإفرنجي مستغرقا في السكر صار يؤانسه بالكلام، ثم قال له: "يا سيدي .. هل تبيعني جاريتك التي اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بألف دينار منذ سنة، وأنا أعطيتك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار، فرفض، ولم يزل الإفرنجي يطعمه ويسقيه ويرغبه في المال حتى أوصل الجارية إلى عشرة آلاف دينار .. فوافق، وأشهد عليه التاجر "وسجل الصفقة في الصباح أمام القاضي".

إن التوازن في بناء الشخصية، وبعد النظر، وطريقة اتخاذ القرار، والصمود أمامه، والدفاع عنه، سوف تميل كفة الميزان فيه لصالح الفتاة الإفرنجية، إذا قورنت بصاحبها الفتي العربي الذي يجد نفسه في نهاية المطاف، وقد ضاعت منه فتاته بطرق قانونية، ومن خلال دروب سعى إليها هو بنفسه، رغم تحذيره من سلوكها وتحديد المخاطر أمامه.

إن الراوي يستكمل بعد ذلك فصول الرواية على سطح البحر، وفي بلاد الفرنجة حيث تنبه الفتى بعد فوات الأوان إلى الكنز السمين الذي فقده، فيصر على أن يلحق بها في بلاد الفرنجة، ويأخذه أحد ربانية السفن في ميناء الإسكندرية معه في رحلة مدتها شهران، لكن قراصنة الفرنجة يتصدون للمركب في اليوم الحادي والخمسين للرحلة، ويأخذون من فيها أسرى لملك الفرنجة وينصحونه بذبحهم تقربا إلي الله وشكرا له على إعادة ابنته إليه، ويتكرر المشهد الذي رأيناه من قبل في معاملة الأسرى حيث يقتل كل الأسرى، ماعدا نور الدين، الذي يكون آخرهم وتطلب راهبة في الكنيسة من الملك أن يمنحها إياه؛ لخدمة الكنيسة، ويتمكن من اللقاء بها، وتدبر له خطة الهرب معه بقارب بحري، وتقوم هي – كالعادة - بكل الخطوات الإيجابية، وتحذره من أن يغفل عن التعليمات؛ حتى تفشل الخطة، وتنجح في الوصول به على ظهر قاربها إلى ميناء الإسكندرية، بعد أن تكون قد تنكرت في زي بحار، يقود المركب بمهارة ويقتل مخالفيه من البحارة، وبعد أن تصل بالفعل إلى الإسكندرية تجئ نقطة الضعف ونقص التفكير والتدبير وإفشال الخطة منه، حيث يصر هو على أن يتركها في القارب وينزل إلي الإسكندرية قبلها؛ ليحضر لها ملابس مناسبة: نقابا، وحبرة، وخفا، وإزارا فقالت له: ولكن ذلك يجب أن يكون بسرعة؛ لأن التراخي في الأمور يورث الندامة.

فقال لها: ما عندي تراخ، وتوجه إلي بيت العطار صاحب أبيه؛ ليستعير لها من زوجته الملابس، ولكنه ما إن عاد إلى الميناء، حتى وجد رجال الأعور قد لحقوا بها وأنزلوها معهم في سفينتهم، وعادوا بها إلي بلادهم، وتكررت المغامرة من جديد ويلحق بها، ويقع في الأسر، ويتعرض للقتل، لكنه ينجو بالمصادفة (ولنلاحظ في كل مرة أن الفتاة الإفرنجية تنجو بالحيلة والتدبير، وأن الفتى العربي ينجو بالمصادفة والمقادير)، وسوف تدبر له من جديد الهرب بحصانين نادرين، طلبت منه أن ينتظرها بهما على باب المدينة، حتى يلحق به، ويهربا عليهما، ويقول الراوي: "أما ما كان من أمر نور الدين العاشق المسكين، فإنه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يده، فأرسل الله عليه النوم فنام، وسبحان من لا ينام، فسرقهما عبد كان يترصدهما، ولمحته الفتاة الإفرنجية، فلحقت به وصرعته بسيفها، وعادت إلى نور الدين النائم فأيقظته، وهربا معا، وعندما لحقت بهما فرقة من الفرسان، كان لا بد من التصدي لهم بالقتال، وسألته السؤال التقليدي الذي يتكرر دائما في الموازنة بين شجاعة الفتاة الإفرنجية والفتى العربي، عندما ركبت هي جوادها وتقلدت سيفها، وحملت آلة سلاحها، وقالت لنور الدين: ما حالك؟ وكيف قلبك في القتال والحرب والنزال؟ فقال لها: إن ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال وهي إجابة أصبحت معروفة من هذه النماذج في ألف ليلة، لكن الراوي يزيد هذه المرة فيؤكد حجته بالشعر، فيورد على لسان نور الدين قوله:

يا مريم اطرحي أليم عتابـــي .. لا تقصدي قتلي وطول عذابي

من أين لي أن أكون محاربـــا .. إني لأفزع مـــن نعاق غـــراب

وإذا نظرت الفأر أفزع خيفة .. وأبول من خوفي علـــى أثوابي

ويكمل الأبيات بأنه لا يجيد الطعان إلا في ميادين الحب والغرام، وهذا تصوير تهكمي يريد من خلاله الراوي أن يجسد المفارقة بين تكوين الفتاة الإفرنجية الشجاعة والفتى العربي الجبان.

وتنجح مريم الزنارية في النجاة بعاشقها، والعودة به إلى بلاد المسلمين مما يدفع ملك الفرنجة، وقد عجز عن إرجاعها أن يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد "كتابا يتضرع إليه فيه، ويطلب ابنته مريم، ويسأله من فضله أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها، وإرسالها مع رسول أمين، ويعده بأن يهب له في مقابل ذلك نصف مدينة روما الكبرى؛ ليبني فيها مساجد للمسلمين ويحصلوا على خراجها "لكن الراوي يجعل هارون الرشيد بعد أن تأتي إليه مريم ونور الدين ويسمع منها هي أكثر مما يسمع منه، يقتنع بحجتها ويتكفل بحمايتها زوجة لنور الدين.

إن الراوي يصور الفتاة الإفرنجية على أنها ذكية جميلة عملية مدبرة فهي شجاعة في الحرب، مخلصة في الحب، ماهرة في إدارة بيتها وزيادة دخلها، لها وجودها المؤثر في تحديد مصيرها ومصير أمتها، وحتى إذا لحقتها الشيخوخة تصير ماكرة مدبرة، تلحق من الضرر بأعدائها أكثر مما يلحق مئات الفرسان.

وفى المقابل تكاد تغيب صورة الفتاة العربية المسلمة فى مجال الصراع وتتضاءل صورة الفتى، إذا قورنت بصورة الفتاة الإفرنجية فتكون له كثير من صفات السلبية والتواكل والخضوع للمصادفات والادعاء فى المقابل أنه يدخر قوته ومهارته إلى مجالات الغرام، التي تكتمل صورتها بالقادة والملوك والأغنياء، وقد تسروا بمئات الفتيات من مختلف الجهات، ضحوا فى سبيل ذلك بكثير من مصالح الفرد والجماعة.

ونكاد نتسائل فى الختام هل يقع الراوي في الانبهار، وهو يرسم ملامح صورة مجتمع عالم الفرنجة، وخاصة عالم النساء أم أنه يوجه كثيراً من النقد لمجتمع المسلمين فى عصره من خلال التركيز على ما يراه ملامح إيجابية هناك تشف بالضرورة عن ملامح سلبية هنا؟!